The Kumbotso Teacher Educator (KUTEJ): A Journal of Multidisciplinary Studies
Vol 8.2 July 2017 ISSN: 1597-8796

بناء القصيدة العربية وتشكيلها لدى الدكتور ذاكر شريف البرناوي ديوانه "وحي الألم" نموذجًا.

د. حبيب سليمان كورا – البدوي –
قسم اللغة العربية حاليا
كلية سعادة ريمي للتربية
ولاية كنو – نيجيريا

ملخص البحث:

الحمد لله العظيم في شأنه القوي في سلطانه، الظاهر حجته وبرهانه المحتجب بالجلال، والمنفرد بالكمال، ذو عزّ الدائم السرمدي، والملك القائم الديمومي.

والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد، سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.

أما بعد:

يسعى الباحث في هذه الورقة إلقاء الضوء على قضية مهمة من قضايا الأدب العربي ألا وهي بناء القصيدة العربية وتشكيلها لدى الدكتور ذاكر شريف البرنوي، ديوانه "وحي الألم" نموذجا.

تتضمن هذه الورقة النقاط الآتية:

1- التعريف بالقصيدة العربية.
2- لمحة تاريخية عن بناء القصيدة العربية.
3- بناء القصيدة عند السيد ذاكر شريف، ويندرج تحتها النقاط الآتية:

أ/ بناء القصيدة عنده من حيث المطلع.
ب/ حسن التخلص.
ج/ المحتوى والمضمون.
د/ ختم القصيدة عنده.

هـ/ الأسلوب.

و/ لغته الشعرية.

ز/ البحور المستعملة في الديوان.

1- التعريف بالقصيدة العربية:

القصيدة من الشعر، ما أتمَّ أبياته، وقيل سمى قصيداً لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيّد، والمعنى المختار، وأصله من القصيد وهو المخ السمين الذي يتقصّد أي ينكسر لسمنه، والعرب تستعير السمن في الكلام الفصيح فتقول هذا كلام سمين أي جيّد، وقالوا شعر قُصِّد إذا نُقِّح وجُوِّد وهُذِّب.[17]

لقد اختلف العلماء في عدد ما يسمى بالقصيدة منهم من يرى بدايتها من ثلاثة أبيات، كالأخفش، وقال ابن جني: "والذي في العادة أن يسمى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة، فأما ما زاد على ذلك، فإنما تسميه العرب قصيدة.[18]

أما الدكتور إبراهيم أنيس قال: سبعة أبيات فأكثر.[19] كما ذهب على هذا الرأي الآب اليسوعي في منجده. ومما سبق يمكن أن نسمي السبعة فصاعدا قصيدة.[20]

لمحة تاريخية عن بناء القصيدة العربية:

القصيدة العربية لها منهجها الغالب في تأليفها وبنائها، فالشاعر الجاهلي مثلا له مسلكه في تأليف قصيدته، حاكاه فيه أكثر شعراء صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي.

عهد الشاعر الجاهلي في منهج تأليف قصيدته على ذكر المرأة، وذكريات الشاعر معها حين وقف على أطلالها وآثار ديارها، يسألها ويتذكر من كان فيها، وقد بكى ويستبكي، أو كما ذكر ابن قتيبة "إنما ابتدئها يكون بذكر الديار والدمن والآثار، فيبكي، وشكا وخاطب الربع، واستوثق الرفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها.[21]

ثم يذكر انتقال الأحبة وظعنهن، وفي خلال حديثه عن المحبوبة يصفها ويغرق في وصف عينها وجيدها وشعرها، وينتزع من البيئة ما يشبه به ذلك من عيني الظبي وجيد الغزال، وسود الليل، وقد يستطرد فيذكر أيام التلاقي، ثم أيام البعاد وما يعانيه فيها من مرارة وعذاب، وقد يسوقه ذلك إلى الحديث عن ترفه وخروجه مع الشباب اللاهي إلى الصيد والطعام

[17]- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، المجلد الثالث، دار الفكر بيروت، بدون ذكر التاريخ، ص: 354 – 356، مادة ق، ص، د.
[18]- ابن منظور، المرجع نفسه، ص: 354.
[19]- إبراهيم أنيس والآخرون، المعجم الوسيط، ط: 3، ج:2، بدون ذكر المطبعة والتاريخ، مادة: ق، ص، د، ص: 772.
[20]- أحمد الهاشمي، ميزان الذهب، القدس القاهرة، ط: الأولى، 2007م، ص: 20.
[21]- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم بيروت، ط: الرابعة 1991م، ص: 31.

والشراب، وخروجه للصيد يسوقه إلى وصف جواده وقوته وسرعة عدوه، ووصف الغزال والظباء وبقر وحش، وربما دعاه ذلك إلى وصف الصحراء والليل والبرايق، والمطر والغدران والوديان.[22]

فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقب بإيجاب لحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر، وسرى الليل، وحرّ الهجيرة، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل، وقرّر عنده ما ناله من المكاره في الميسر، بدأ في المدح فيبيعه على المكافأة، وهزّ للسماح، وفضّله على الإشباع من قدره الجزيل،[23] فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب.

إن المجددين من شعراء العصر العباسي حاولوا الخروج من هذا المنهج التقليدي للقصيدة، وسخروا من الوقوف على الإطلال لانفصالهم عن الحياة العربية القديمة التي تسعى دومًا وراء الكلأ والماء، أما المجددون فإنهم يعيشون في المدن والقصور العاليات، مثل حياتهم في الكوفة، والبصرة، ودمشق، ثم لم تعد الناقة وسيلة انتقالهم في داخل هذه المدن، ولهذا يقول أبو نواس: ساخرًا.[24]

ما لي بدار خلّت من أهلها شغل * ولا شجاني لها شخص ولا طلل

والحزن مـني بـرأي العين أعـرفه * وليـس يعرفـني سهل ولا جبل

ولا أنْعَتُ الروض إلا ما رأيت به * قصرًا منيفًا عليه النخل مشتمل

لكنّ هذه المحاولة وجدت إعراضا من النقاد القدامى، الذين يعدون بناء القصيدة الجاهلية نموذجا ينبغي أن يحتذيه الشعراء اللاحقون.

تمشيا مع الزمن، جدد الشعراء المحدثين بناء القصيدة، إذ جعلوها مقصودة على موقف شعوري واحد، وتجربة إنسانية مفردة، وبذلك أصبحت بناء شعوريا وفكريا متكاملا، له نقطة بداية يتطور وينمو حتى يصل إلى غايته مع ختام القصيدة.

حدث عدة محاولات في العصر العباسي لإحداث تغيير ما في هذا البناء، منها محاولة أبي نواس أيضا برفضه استفتاح القصيدة بالوقوف على الأطلال، ودعوته إلى الاستفتاح بذكر الخمر، مدّعيا انتقال الشعراء من الخيام إلى القصور، ومن البداوة إلى الحضارة، ومن ذلك قوله:

دع عنك لومي فإن اللوم إغـراء * وداوني بالتي كانت هي الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها * لومسها حجر مسته سـراء

[22]- محمد محمد خليفة (الدكتور) الأدب والنصوص في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي، ط:1، الأمبرية القاهرة 2002م، ص: 4.
[23]- ابن قتيبة، المرجع السابق، ص: 31.
[24]- رمضان عبد التواب وآخرون، البلاغة والنقد، وزارة المعارف السعودية، ط: الثالثة، 1981م، ص: 130 – 131.

وقوله:

صفة الطلــول بــلاغة القُــدْمِ * فاجعل صفاتك لابنه الكـرْمِ

ولكن دعوته هذه لم تكن أكثر من استبدال تقليد بتقليدٍ، أما صلب القصيدة وإطارها فلم يكن موضع تغيير.

وكذلك لم تنجح محاولة المتنبي عندما انتقد بناء القصيدة بالنسيب، وقال بيته المشهور:

إذا كان مدَحٌ فالنسيب، المقدم * أكلُّ فصيح قال شعراء متيَّمُ

غير أن هذا التمرد لم يجاوز عصر المتنبي نفسه، ولم يجد من الشعراء من يؤيده وانتهي المتنبي، وانتهت ثورته، وظلت القصيدة هي القصيدة بكل ميراثها وتقاليدها وظلّ مفهوم الشعر هو المفهوم الذي استقر أصوله على أيدي الشعراء عصرًا بعد عصرٍ.[25]

بناء القصيدة عند السيد ذاكر شريف:

أ= من حيث المطلع:

صاحب هذا الديوان السيد ذاكر شريف من الشعراء الذين تفنّنوا في تنويع مطالع القصائد تارة مع القدامى محاكيا، حيث ابتدأ قصائده بالبكاء على الأطلال، أو النسيب أو ذكر شيء من محاسن النساء، ذلك لعلمه بأن المطلع ركن عظيم من أركان الشعر العربي كما نوّه بذلك النقاد "إن الشعر قفل ومفتاحه أوله، وهو أول ما يطرق السامع إلى الإصغاء إن جيدا، وإلى الإنصراف إن كان رديئًا فاترًا".[26] ومما قرره النقاد بالمطلع توّفر الصورة الجمالية الفنية من الوضوح والسهولة. وعدم التعقيد في تراكيبه وصلب القصيدة، ويناسبها من حيث الصياغة والمبنى.

وعندما تقرأ ديوانه "وحي الألم" تؤمن بأنه إحتذى حذو علماء القرن التاسع عشر من حيث المطلع والقافية والوزن والأسلوب، ومما يمثل الباحث به في هذا المقام، قصيدته بعنوان: الزيارة" التي قص فيها زيارة شيخه الكريم إلى مدينتهم فبدلا أن يبدأ القصيدة بحديثه عن هذه الزيارة، استهل القصيدة مغازلاً بحبيبته "سَعَا" التي فارقته واداهمته الحيرة والدهشة، معانيًا ألم الفراق، منسكبًا دموع الهطّالة الناعمة، اسمعوه يقول:

تركنا سَعَا بين الأماليد تبخع * وتذري دموعًا عندما نتودَّع

وعندما نأتي إلى قصيدته "حبُّ مِنْ دُوسَنْ ما" (Dutsan ma) نلمس محاكاته بالقدامى في مطلعه، يقول:

[25]- فرج عبد السلام السوقي، وآخرون، النقد الأدبي، ج:1، ط: 1، الجماهيرية العربية الليبية 1494هـ = 1985م.
[26]- فرج عبد السلام السوقي، المرجع نفسه، ص: 11.

لئن بَعُدَتْ عني سَعَا ومزارها * فقد هاجني تذكارها وكلامها

وهكذا نشم رائحة احتذائه بالشعراء العرب القدامى في قصيدته "أرضي" حيث ذكر في مطلعه أسماء أدوات الزينة للمرأة الجاهلية، كالخلخال، والأسوار وغيرهما، ودونك مطلع القصيدة:

سلبوه خلخالها وسوارها * ثمَّ من بعد ذلكم صلبوه

وقد امتاز الشاعر السيد ذاكر شريف يرسم الصورة الصادقة لمشاعره وخلجات نفسه في بعض مطالعه حيث قال في قصيدته "وأما السائل فلا تنهر" تصدى الشاعر لذكر عطفه على الفقراء والمساكين، جاء فيها:

أ في الفقر عيب أم به السوء فأخبروا * وما ذنب مسكين أتى يتكفكف

استهل الشاعر القصيدة باستفهام تعجيبي الذي من خلاله ظهرت لوعة الشاعر وحيرته من سوء معاملة الناس لهم، وألا المبالاة بتكاليفهم العائلية الملقاة على عواتقهم.

وأحيانا يرتجل في افتتاح قصيدته بدون المقدمة بل يذهب إلى صلب الموضوع رأسيا كما حدث في قصيدته "في ذكرى المولد النبوي" استهلها بقوله:

هو للأنام سعادة وسناء * هو غيمة عاشت بها الجدباء

2- حسن التخلص:

المقصود بحسن التخلص هو الانتقال من غرض شعري إلى غرض شعري آخر، بلطف مع رعاية المواءمة بين الغرضين بحيث لا يشعر السامع بالانتقال، لشدة المماذجة والإنسجام.[27]

لعب السيد ذاكر شريف دوراً فعالاً في ديوانه في أماكن كثيرة، فمن التخلصات المختارة في ديوانه نموذجاً.

تركنا سَعَا بين الأماليد تبخع * وتــذري دموعًا عندما نتودَّع

تثبطـــني عن مسجد وزيارة * ومدح إمام من به الوزر يُرْفَعُ

وقوله:

سعاد لقد طال الفراق فما لك * تزيدين تيها فاقصدي في دلالك

هلمي إلى غوث العباد وشمري * لباب أبي العباس منجي الهوالك

[27]- بسيوني عبد الفتاح بسيوني، علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، طبع في جامعة الأزهر بالقاهرة، 1424هـ = 2003م، ص: 128.

وقوله أيضا:

أتى العيد فاستبشر بالعيد قد أتى * سروري وأفراحي فقلبي طروب

وذكرنـــي أهل العـــراق فغاظنـــي * هوانـــهموا إن العـــراق سليب

3- المحتوى والمضمون:

محتوى قصائد السيد ذاكر شريف لا تتسم بروح الغموض أو التعقيد المعنوي، ولا تجد معانيه مضطربة، أو يستطرد فيخرج عن الموضوع، بل ينظم أفكاره ومعانيه تنظيمًا منطقيًا، حيث تجد الفصاحة وحسن السبك وعذوبتها.

من خلال النظرة المتقصية لقصائد الديوان نستطيع القول بأن مضامين ومحتوى شعر السيد ذاكر شريف تدور حول المديح النبوي وأهل بيته ومدح شيوخ الطرق الصوفية، وحديثه عن نفسه وما أصابه من فرح وترح وما اكتوتْ به من نار المحبين.

وشعره تاريخ لوطنه الحنون وما أصابها من زاريا وتدْهور، كما أنه تعبير عن طموحات نفسه وشعبه، وكل الشعوب المقهورة في الحصول على الحرية والإستقلال زد على ذلك أن ديوانه محاولة فضح مكايد أمريكا وأعوانها وسعيًا إلى جمع شمل قومه، والبعد كل البعد عن أسباب الفرقة والخلاف.

إن ديوانه محفوف بالاقتباسات التي زاده روعة وجمالا، إن دل هذا على شيء، فإنما يدل على تمكّنه في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المطهرة.

ومن الاقتباسات المختارة في الديوان قوله على سبيل المثال:

هو رحمة للعالمين وإنه * نور الإله به انزوت لأواء

هذا البيت بني على أساس قوله تعالى: ﴿ ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

وقوله في قصيدته "الجنة في المزاد":

وفيها مـن الأنـــهار ما لذّ طعمه * وما طاب شـربا والأريج مصوّع

وفيـــها قصـور عالـيا مشيـــدة * بطوب من الياقوت بل ذا منوّع

وفيها حسان الحور من لو رأيتهن * لطـــرت خيالا بالحقائق أصدع

وهن قاصرات الطرف لا شك نهد * طهرن من الأقـذار بل ما يشنع

عفيفات لم يطمثن من قبل إنــهن * خلقن من الأنار فالنــور يسطع

الأبيات السابقة تعكس لنا بكل صدق وأمانة ظاهرة اقتباس من سورة الرحمن عندما يصف لنا سبحانه وتعالى صفات حور العين، وبنية أجسادهن الطاهرات، قال أعز من قائل: ﴿ ۀ ۀ ہ ہ ھ ھ ے ﴾ **الرحمن: ٥٦**. وقوله: ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڈ ﴾ **الرحمن: ٧٢**. وقوله أيضا: ﴿ چ چ چ چ ﴾ **الرحمن: ٧٦**.

وكذلك نشم ظاهرة الاقتباس من القرآن عند قول الشاعر:

فلا تحسبنّ الله مخلف وعده * ولا تحسبنّ الله بالخير يقذف

البيت يحاكي قوله تعالى: ﴿ □ □ □ □ □ □ ﴾ **آل عمران: ٩**. ونلمس ظاهرة الاقتباس في قول الشاعر:

ألا ادع إلى سبيل الإله بحكمة * وموعظة حسنى لقوم وآمنوا

اقتبس البيت من قوله تعالى: ﴿ ۀ ۀ ہ ہ ھ ھ ے ۓ ﴾ **النحل: ١٢٥**. وغير ذلك كثير.

4- من حيث ختم القصيدة عنده:

إن التأثير الديني واضح في كل ما يكتبه السيد ذاكر شريف لذا كان ختامه مسك لأنه أحيانًا يختم قصائده بالحمدلة والصلصلة، وهي خاتمة عُرفت عند علماء الصوفية ومثال الباحث على ذلك قوله عندما يختم قصيدته "في ذكر المولد النبوي" جاء فيها:

صلى عليه الله خير صلاته * ما لاح برق أو شذا الشعراء

وحينًا آخر يختم قصيدته بالنصيحة كقوله:

فــلا تطــرد المسكين إياك إنه * يجيــئ بأمــلاك السما وتـرفــرف

أتطــرده جهلا وتــدعو إلــهه * لينجيك مما كنت؟ هل أنت منصف

تصدق تجد أضعافه كن مجاملا * ولا تــك فــظ القلــب لا تتقصف

وكذلك يختم بالآية القرآنية مثل قوله:

اعملوا فالله وراء جهودكم * ولا تسرفوا في الأمر قد خاب مسرف

وإن كانت قصيدته، قصيدة غزلية ختمها بالغزل أيضا، كقوله:

نسيم الصبا بلّغ تحية وامق * إلى من أهوى إذ جُزْتَ عبر ديارها

5- من حيث الأسلوب:

إن الأسلوب هو الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الشاعر أو الكاتب ويبين بها عما يجول في نفسه من العواطف والمشاعر والأحاسيس فهو ركن أساسي من أركان الفن الأدبي لذا عُني به النقاد في بحوثهم، ويعتبر تكوين المفردات لبنة أولية للأسلوب، ولا يؤدي دوره إلا إذا توفرت فيه السمات الجمالية وهي: الدقة، والإيحاء، والسهولة، والألفة، والطرافة، والشاعرية.[28]

ولقد كانت الألفاظ والمعاني هما عنصران مهمان في نقل تجربة الشاعر إلى متلقى قصائده في كفاية ومقدرة ينتزعان الإعجاب والثناء من الدارسين والنقاد، وكان من أهم الأساليب الفنية التي وظفها ذاكر شريف في تحقيق هذه الغاية، الأساليب التالية:

1/ أسلوب التشخيص:

المقصود بالتشخيص أن ينجح – الشاعر بحضور عاطفي المتوهج وأسلوبه المجازي المبدع – ويخلع الحياة الآدمية والصفات الإنسانية على الأشياء المعنوية أو الجمادات الحسية، فيخيلها في فنه إلى أشخاص وأناسي ذوي عواطف نابضة وأحاسيس صادقة يَحْيَون، ويتحركون، ويفعلون، ويضحكون، ويفرحون، ويتألمون،[29] ومع الشاعر يتفاعلون، ويتشاركون، يفرحون بفرحه، ويحزنون بحزنه، ويتوسل الشاعر إلى هذه الغاية الفنية بوسيلة بلاغية معروفة وهي الإستعارة المكنية في أغلب الأحوال.

وهو أسلوب فني دقيق يعطي الأداء الشعري قوّة مؤثرة تتناغم أوتار النفس، وتتفاعل مع موجات الروح فتخلق الإنسجام والتآخي والتعالق والتلاحم بين الملتقى والنص الفني فتنجذب إليه الملتقى ويتجاوب معه ويعيش في جوّه ويسعد بعطائه الفكري والشعوري.

القارئ لهذا الديوان يظهر له بوضوح أن الشاعر استعمل هذا النوع من الأسلوب بكثير يكفي الباحث نموذجًا واحدًا فقط، يقول الشاعر في قصيدته "نيجيريا الأم" إذ جعلها تعبّر عن قلقها وآلامها الداخلية بنفسها ودونك الأبيات:

قـروح بجسمـــي ثم أغضيت ناسيا * وهرولت للأغيار فورا لتسعف

وقد عفنت هذي القروح وأخرجت * صديدًا وكل الناس مني تأففوا

[28]- أحمد أحمد بدوي، أسس النقد عند العرب، نهضة بمصر، 1996م، ص: 451.

[29]- جلال صابر حجازي، مع أبي الطيب الرندي ونونيته الأندلسية، 1417هـ= 1997م،ط: 1، دار السعادة مصر، ص: 363.

تأمل ترى هذي الـــدمامل بارزت * وتأكل جسمي والمصائب تدنف

وتــي جمــرة لا زلت أشعر حــرها* بقلبي وإني بالشجاعة أعـرف

إلى قوله:

أتتركـــــني والـــــداء باد وهـــــذه * وجـوه كرام الناس مني تأسف

2/ أسلوب التقابل:

وهو أن يحرص الشاعر إبراز ظاهرة التضاد النفسي والتصويري في التعبير عن تجربته الشعرية لتبدو المفارقة واضحة مثيرة فيها يعرض من أحداث، أو يصور مواقف إذ بضدها تتميز الأشياء.[30] وهو منهج يساهم في بناء الصورة الفنية في القصيدة عند الشاعر الموهوب ويعطيها ظلالا وأبعادًا جديدة لا تحملها الألفاظ المجردة أو الكلمات المفردة خارج القصيدة، خذ على سبيل المثال قوله:

أحرب على كل المذاهب همكم؟ * وتدمير دين الله ذلك يشجن

هل الـــوعظ دوما لعنة وشتيمة * وتحريض غوغاء يسبوا ويلعنوا

إلى قوله:

أتطويل هاتيك اللحى كل دينكم؟ * وتقصير سوال لديـــي يشـــين

وأعلنتموا حـــربا ضـــروسا جهارة* على أولياء الله هل ذاك يحسن

3/ أسلوب الطبع:

يعتمد هذا الأسلوب على السمح الذي يصدر فيه الشاعر والأديب عن طبعه وسجيته ويمتع فيه في معين ذاته، ويتميز بسهولته وعذوبته كما يتميز بعده عن التعقيدات اللغوية، والصناعة اللفظية الزخرفية والقيود البديعية المتكلفة التي تستغلق معها المعاني، وتحجب الأحاسيس والمشاعر.

أجال السيد ذاكر شريف فكره وقلمه في هذا المجال، قال وأجاد، ومما يعرضه الباحث قصيدته "نداء عاجل" التي خاطب بني قومه نحو قيامهم عن ساق الجد والجهد لطرد العدو المترقب، الذي يتمنى زوال دولتهم وذهاب ريحها وقوّتها.

عبّر الشاعر بأسلوب سهل وسلس، الناتج عن طبعه وسجيته بعيد عن التعقيد والتكليف يقول فيها:

[30]- جلال صابر حجازي، المرجع السابق، ص: 267.

أيستيقظ الوسان من غفواته * ويعلم أن الأمر جد خطير

أينتبه اللاهي وهل ثم يرعوي * فيقلع عن غي وذاك جدير

إلام التمادى في التغافل جلهة * وهذه نذير بالشرور يشـير

إلام التمادى في التلاعب بينما * تحاك حبال حولكم وشرور

متى يعرف اللاهي بأن بلاده * مهددة والشامـتون كثـير

متى يستفيق الغافلون ليطردوا * الشياطين جاءوا والشرور تطير

4/ أسلوب الجدل:

القائل في يتجه إلى الخصم محاولاً إفهامه فالأسلوب فيه يعتمد على البراعة في استنباط الحجج وسوق الدليل، وهو أسلوب شائع في الخطابة السياسية والشعر السياسي.

ذاكر شريف هو الآخر سلك هذا الضرب في إقناع خصمه في مجال السياسة، أمثال ذلك أبياته إلى والي بَيَلْسَا (Bayalsa) الذي نهب أموال قومه وزوّر شخصيته وتنكّر:

قد أكثروا قولا يصك مسامعا * بوعودهم عجزوا على إيفائها

نهبوا كنوز الظالمين وجاهـروا * جور الـرعية أعجزوا إصحها

وقوله في قصيدة أخرى:

أبمثل ذا تتقـدم البلـدان أم * بمثاله تعلـوا علـى أقـرانها

أبمثل ذا تبني الحضارة ويلكم * بل ذالكم عمل على إذلالها

5/ أسلوب الحض:

يراد به الحث على أمر، أو التنفير من أمر، ويعتمد كثيرا على الجمل الإنشائية في إثارة الانفعال.

ومثال الباحث على ذلك قوله:

أيستيقظ الوسان من غفواته * ويعلم أن الأمر جد خطير

اكتفى الباحث بسرد تلكم الأساليب خوفا من الإطالة المملة.

6/ من حيث لغته الشعرية:

يختلف النقاد العرب عن النقاد الغربيين عند الكلام على اللفظ، فالغربيون لا يرون فرقا بين أية لفظة وأخرى، وإن كان المفردات المتوفرة يمكن للشاعر أن يستخدمها، وأن يجد منها ثروة لا تغني من الخيال أو العواطف أو الجرس أو الإيحاء.

أما النقاد العرب فلم يفهموا الأمر كذلك فهم تكلموا عن ألفاظ شعرية وألفاظ غير شعرية، وميزوا بينهما.[31]

قال ابن رشيق في عمدته:[32]

"وللشعر معروفه، وأمثلة مألوفة لا ينْبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها، كما أن الكتّاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزوها على سواها إلا أن يريد الشاعر أن يتطرّف باستعمال لفظ أعجمي في النُّدرة، وعلى سبيل الخطرة كما فعل الأعشى قديما، وأبو نواس حديثًا فلا بأس بذلك".

وجعل النقاد العرب ألفاظ ملائم لكل غرض ولكل باب من أبواب الشعر، فألفاظ النسيب مثلا يجب أن تكون مختلفة عن غيرها من حيث مخارجها.

يقول ابن رشيق في الألفاظ والمعاني في النسيب: "حق النسيب أن يكون الألفاظ رَسْلَها، قريب المعاني سهلها غير كزّ، ولا غامض، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ليّن الإيثار، رطب المكسر، شغاف الجوهر يطرب الحزين ويستخف الرّصين".[33]

أما ابن طباطبا يرى أن تكون ألفاظ القصيدة متصلة غير متراخية، ولا يكثر فيها الحشو والجمل المعترضة، وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو فيحه فيلائم بينها لتنظيم له معانيها ويتصل كلامه فيها".[34]

والذي طالع ديوان السيد ذاكر شريف، وتأمل ألفاظه ومعانيه من خلال أساليبه وعاطفته وخيالاته، يصدق تصديقا جازماً أنه يختار في عرض الغزل والنسيب مفردات جزلة متينة فيه رقة الشعور وليونة المزاج، لها صدى في إبلاغ الإحساس بالحب إلى ذهن وقلب السامع، كما يجد فيها رشاقة وجمالاً في العيون، وعذوبة في الآذان، مثال الباحث في ذلك قوله:

أيا كعبة المشتاق ها جئت مسرعا * وقد أسدل الليل الستار حواليا

[31]- داود سلوم (الدكتور)، النقد الأدبي، الزهراء بغداد، 1997م، بدون ذكر العدد، ص: 168.
[32]- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر ونقده، الطلائع القاهرة، 2006م، ص: 109.
[33]- المرجع نفسه، ص: 100.
[34]- داود سلوم، المرجع السابق، ص: 124.

وقوله:

براني هذا الحب حتى بكى على * هزالي صديقي والعدو المجافيا

وقوله في قصيدة أخرى:

أحب سعا لا عن عماد ولا خنا * ولا طمع في الجاه أو في جمالها

وعندما تصادف أبياته المادحة تتجلى فيها ألفاظه ولغته الشعرية بين الجزالة والسهولة ورقة المعاني وجزالتها، مثال الباحث قوله يمدح النبي صلى الله عليه وسلم:

هـو رحمة للعالـــمين وإنه * نور الإله به انزوت لأواء

هذا ابن آمنة الأمين محمد * وسماته باحت بها البلغاء

وبفضله حمل الـمشاعل قادة * دانت لهم دنيا وهم فقـــراء

خير الخلائق تاجها وسراجها * وبحبله يتمســـك العقــلاء

خير الأنام شفيعها ومـمدها * يوم الحساب وولت الشقعاء

وعندما نتصفح لغة الشاعر الشعرية فيما يمس جانب عطفه وحنانه حول الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، يبدو حزنه وجراحه العميق، في أوتاره ونغماته، المؤدي بألفاظ وكلمات متباكية، استطاع الشاعر إبراز شعوره تجاههم، متحرّيًا اللغة الشعرية اللائقة، جاء في قصيدته "ولو بشق تمرة".

فكم نام أهل الفقر قسرًا على الطوى * وأبطنهم جراء ذاك تـــمور

وحولـهموا أطفالهم أكثـــروا البكاء * وليس لـهم إلا الإله مـجير

وقوله في قصيدة "وأما السائل فلا تنهر"

تره وقد جفت يداه وأصبحت * كقطع من الأحجار والدمع يذرف

ويلبس أطماراً كذاك بناتـــه * فهل ثـــم حر للـــدموع يكفكف

وفي بيته قدر وإن كان عاطلا * فـــلا يعـــرف النيران كان مشرف

قدور تناهت في البياض وكيف لا * وأصحابها قاسوا الطوى وتعففـــوا

6- من حيث البحور المختارة في الديوان:

إن السيد ذاكر شريف ألزم نفسه تتبّع الأوزان والبحور الشعرية التقليدية، ولم يخرج قيد شبر منها، استخدم في معظم قصائده ومنظوماته البحر الطويل، والكامل، والوافر، والخفيف، والبسيط، ساعدته في ذلك فساحة صدره ودقة معرفته بالموسيقى من ذوقه المطبوع وسمعه المرهف فلا يسيئ في اختيار البحر في غرض من الأغراض، فالشاعر الموهوب يختار البحور التي تلائم صوته قوةً وضعفاً، فالشاعر الطاعن في السنّ، والشاعر ضعيف الجسم والشاعر حفيض الصوت، والشاعر المريض بأمراض الصدر، وغيرها يعجزهم أن ينشدوا من البحر الطويل، أو البحر البسيط لطولهما.

فالأول: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن، مرتين.

والثاني: مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن، مرتين.

فهما كما ترى أكثر البحور طولاً، وهما لذلك لا يستطيع أن ينسج فيهما إلا ذو صدر قوي عريض، ونفس مديد وحنجرة ضخمة يستطيع صاحبها أن يسمع الصفوف النائية ويملأ جلبة وجلجلة فيشد السامعين إليه فلا ينصرفون عنه.[35]

والبحر الطويل يتّسع لكثرة المعاني، فيصلح للفخر، والحماسة، والرثاء، والوصف، والشكوى، والألم، والنظرات الكونية.

وذاكر شريف لم يشذ في هذه الأغراض التي ذكرها على الجندي في كتابه "الشعراء وإنشاد الشعر" استخدم البحر في الرثاء والشكوى والمديح النبوي.

والبحر الكامل جاء في ديوانه في المرتبة الثانية "ويصلح البحر بالحنين وقص الأخبار والمعاني التقريرية".[36] ثم الوافر وهو ألين البحور حيث يشتد إذا شدّدته، ويرق إذا رققته وأكثر ما يجود به النظم في الفخر، وفيه تجود الراثي.

ويليهما البحر الخفيف وهو أخف البحور على الطبع، وأطلاها للسمع يشبه الوافر لينا، ولكنه أكثر سهولة وأقرب انسجاما وإذا جاء نظمه رأيته سهلاً ممتعاً لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنثور، وليس في جميع بحور الشعر بحر نظيره يصلح للتصرف بجميع المعاني.[37]

الخاتمة:

[35]- علي الجندي، الشعراء وإنشاد الشعر، دار المعارف بدون ذكر العدد والتاريخ، ص: 100.
[36]-المرجع نفسه، ص: 105.
[37]- علي الجندي، المرجع السابق، ص: 106.

وخلاصة القول رأينا أن الشاعر اختار خمسة بحور في ديوانه كما سبق ذكرها آنفا، وطبّقها تطبيقًا يوافق الشعر العربي الأصلي، وأجاد إجادة دونها إجادة هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

والحمد لله في أوله وآخره.

المراجع:

- القرآن الكريم.
- أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة بمصر، 1996م.
- أحمد الهاشمي، ميزان الذهب، القدس القاهرة، الطبعة الأولى، دون ذكر التاريخ.
- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، الطبعة الثالثة، الجزء الثاني، دون ذكر المطبعة والتاريخ.
- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر ونقده، الطلائع القاهرة، 2006م. دون ذكر العدد.
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار إحياء العوم بيروت، الطبعة الرابعة، 1991م.
- ابن مظور الإفريقي، لسان العرب، المجلد الثالث، دار الفكر بيروت، دون ذكر التاريخ والعدد.
- بسيوني عبد الفتاح بسيوني، علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصلول البلاغة ومسائل البديع، مطبعة جامعة الأزهر بالقاهرة، 1424هـ = 2003م.
- جلال صاير حجازي، مع أبي الطيب الزندي ونونيتهالأندلسية، الطبعة الأولى، دار السعادة بمصر، 1417هـ = 1997م.
- داود سلوم (الدكتور)، النقد الأدبي، الزهرا بغداد، 1967م، دون ذكر العدد.
- رمضان عبد التوّاب وآخرون، البلاغة والنقد، وزارة المعرف السعودية، الطبعة الثالثة 1981م.
- علي الجندي، الشعر وإنشاد الشعر، دار المعرف القاهرة، دون ذكر العدد والتاريخ.
- فرج عبد السلام السوقي والآخرون، النقد الأدبي، الجزء الأول، الطبعة الأولة، الجماهيرية العربية الليبية، 1349هـ = 1985م.
- محمد محمد خليفة (الدكتور)، الأدب والنصوص في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي، الأميرية القاهرة، 2002م.